بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة عبس من الآية (١) إلى الآية (١٦)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقبل الشروع في تفسير سورة عبس نسمع الآيات من سورة النازعات، عبد الرحمن خُذ المصحف.

بسم الله الرحمن الرحيم

{وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا * وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا * وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا * فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا * فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا * يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ * تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ * قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ * أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ * يَقُولُونَ أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ * أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً * قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ * فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ * فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ * هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى * إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى * اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى * وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى * فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى * فَكَذَّبَ وَعَصَى * ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى * فَحَشَرَ فَنَادَى * فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى * فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى * أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا * رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا * وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا * وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا * أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا * وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا * مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ * فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى * يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى * وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى * فَأَمَّا مَنْ طَغَى * وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى * وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى * يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا * فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا * إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا * إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا * كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا}، [سورة النازعات].

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله.

يقول الله -تبارك وتعالى- لهؤلاء المكذبين بالبعث: **{فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى}** [النازعات: ٣٤]، إذا جاءت الداهية العظمى التي تطم على سائر الدواهي والوقائع العظام، **{يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى}** [النازعات: ٣٥] عندها يعلم الإنسان ما كان عليه من العمل، ويتذكر تقصيره وتفريطه، **{وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى}** [النازعات: ٣٦] أُظهرت حتى صارت بادية للعيان يراها كل أحد، **{فَأَمَّا مَنْ طَغَى}** [النازعات: ٣٧] جاوز حده في الطغيان فكذب الرسل، وكفر بالله -عز وجل-، **{وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا}** قدمها، واشتغل بلذاتها وشهواتها، وأعرض عن الإيمان والعمل الذي ينفعه ويرفعه، **{فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى}** [النازعات: ٣٩] فإن مصيره الذي يصير إليه هو النار، **{وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى}** [النازعات: ٤٠]، **{خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ}** أي: مستحضراً رقابته ونظره إليه، وقيامه عليه، يُحصي عليه أعماله، ولا يفوته شيء من أحواله وأقواله، أو خاف قيامه بين يدي الله -عز وجل- للحساب، ونهى نفسه عن هواها، وحملها على طاعة مولاها، **{فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى}** [النازعات: ٤١]، فإن مصيره إلى الجنة، هذه هي المعادلة، وهذا هو الذي يترتب عليه الفوز أو الهلاك، بهذا الإيثار إيثار الهوى، أو إيثار الإيمان وطاعة الله -عز وجل.

{يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا} [النازعات: ٤٢]، يتساءل هؤلاء، منهم من يسأل سؤال مكذب مستبعد لوقوعها، ومنهم من يسأل سؤال مستفسر يطلب معرفة وقت الساعة، {فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا} [النازعات: ٤٣]، ما أنت والساعة؟، ما أنت وذكر الساعة؟، وما أنت وعلم وقت وقوع الساعة؟، فذلك لا يرجع إليك، فلا تشتغل به، ومثل هذا السؤال لا يعلم جوابه إلا الله -تبارك وتعالى.

{إِلَى رَبِّكَ مُنتَهَاهَا} [النازعات: ٤٤] فإن علمها إنما ينتهي إلى الله -تبارك وتعالى- دون ما سواه، {إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا} [النازعات: ٤٥] ما عليك إلا الإنذار والبلاغ، فهذه مهمتك، لا أن تخبر عن وقت مجيئها.

{كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا} [النازعات: ٤٦] هذه التي يستبعدها هؤلاء من بعض أصحاب هذه السؤالات، أو الذين يستطيلون هذا البقاء في هذه الحياة الدنيا أو يتساءلون متى تقع الساعة، ليعرفوا ذلك: كل ذلك إذا نُظر إليه باعتبار قصر الحياة الدنيا فإن ذلك يقتضي أن الساعة قريبة، هي في غاية القرب، {كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا}، فلا يستطيل الإنسان مدة هذه الحياة، أو يستبعد قيام الساعة، أو يفرط في العمل الصالح، هذه الحياة قصيرة في غاية القصر.

بعد ذلك نبدأ بسورة عبس، وهذه السورة افتتحت بمعاتبة للنبي -صلى الله عليه وسلم- في واقعة حصلت، وصح ذلك في عدد من المرويات، وحاصله يرجع إلى أن ابن أم مكتوم -رضي الله عنه-، وهو قرشي من أهل مكة، ابن خال خديجة -رضي الله تعالى عنها-، وكان رجلاً قد كف بصره، فجاء إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- يسترشد، وكان عند النبي -صلى الله عليه وسلم- بعض الكبراء من قريش، في بعض الروايات الصحيحة أبي بن خلف، وفي بعضها عتبة بن ربيعة، وأبو جهل، وفي بعضها على الإبهام، فالمقصود أن النبي -صلى الله عليه وسلم- كان حينها مشتغلاً بهؤلاء في دعوتهم رجاء أن يسلموا فيكون ذلك سبباً لإسلام قومهم، فجاء ابن أم مكتوم في هذه اللحظات، فالنبي -صلى الله عليه وسلم- عبس في وجهه -وهو لا يرى النبي -صلى الله عليه وسلم- وأعرض عنه فلم يجبه، وأقبل على هؤلاء يدعوهم، فعاتبه الله -عز وجل- في صدر هذه السورة {عَبَسَ وَتَوَلَّى * أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى} [عبس: ١- ٢] إلى آخر الآيات.

هذا صدر السورة، وباقي السورة يتحدث عن قدرة الله -عز وجل-، ودلائل القدرة على البعث والنشور، وأن هذا الذي بهذه الصفة هو الذي يستحق العبادة وحده دون ما سواه.

وبين الله – تبارك وتعالى – أن الذين استغنوا عن الإيمان والتوحيد والهدى من كبراء المشركين كان أولهم نطفة، وآخرهم جيفة، ثم بعد ذلك الله يبعثهم الله -عز وجل-، ويحاسبهم ويجازيهم على أعمالهم، وهم فيما بين ذلك يتقلبون بنعمه وأفضاله حيث ذكر لهم انصباب الماء من السماء، وانصداع الأرض وانشقاقها بالنبات، وما يخرج فيها من ألوان الثمار والزروع والنباتات لهم ولأنعامهم، فهذا الذي بهذه الصفة وهو القادر على هذه الأمور أحق أن يعبد ويوحد، وأن تصرف العبادة له وحده دون ما سواه، وأيضاً هو القادر على إعادة الأجسام من جديد.

{عَبَسَ وَتَوَلَّى * أَنْ جَاءَهُ الأَعْمَى * وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى * أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى * أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى * فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى * وَمَا عَلَيْكَ أَلا يَزَّكَّى * وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى * وَهُوَ يَخْشَى * فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى * كَلا إِنَّهَا

تَذْكِرَةٌ * فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ * فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ * مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ * بِأَيْدِي سَفَرَةٍ * كِرَامٍ بَرَرَةٍ}. [عبس: ١-١٦].

ذكر غيرُ واحد من المفسرين أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كان يوماً يخاطبُ بعض عظماء قريش وقد طَمع في إسلامه، فبينما هو يخاطبه ويناجيه إذ أقبل ابنُ أم مكتوم -وكان ممن أسلم قديماً- فجعل يسأل رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عن شيء ويلح عليه، وودّ النبي -صلى الله عليه وسلم- أنْ لو كف ساعته تلك ليتمكن من مخاطبة ذلك الرجل؛ طمعاً ورغبة في هدايته، وعَبَس في وجه ابن أم مكتوم وأعرض عنه، وأقبل على الآخر، فأنزل الله تعالى: {عَبَسَ وَتَوَلَّى * أَنْ جَاءَهُ الأَعْمَى * وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى}؟ أي: يحصل له زكاة وطهارة في نفسه، {أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى} أي: يحصل له اتعاظ وانزجار عن المحارم، {أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى * فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى} أي: أما الغنيّ فأنت تتعرض له لعله يهتدي، {وَمَا عَلَيْكَ أَلا يَزَّكَّى} أي: ما أنت بمطالب به إذا لم يحصل له زكاة، {وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى * وَهُوَ يَخْشَى} أي: يقصدك ويؤمك ليهتدى بما تقول له، {فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى} أي: تتشاغل، ومن هاهنا أمر الله -عز وجل- رسوله -صلى الله عليه وسلم- ألا يخص بالإنذار أحداً، بل يساوى فيه بين الشريف والضعيف، والفقير والغني، والسادة والعبيد، والرجال والنساء، والصغار والكبار، ثم الله تعالى يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم، وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة.

وروى أبو يعلى وابن جرير عن عائشة قالت: أنزلت: {عَبَسَ وَتَوَلَّى} في ابن أم مكتوم الأعمى، أتى إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فجعل يقول: أرشدني، قالت: وكان عند رسول الله -صلى الله عليه وسلم- رجل من عظماء المشركين، قالت: فجعل النبي -صلى الله عليه وسلم- يُعرض عنه ويقبل على الآخر، ويقول: ((أترى بما أقول بأسا؟))[1]. فيقول: لا، ففي هذا أنزلت: {عَبَسَ وَتَوَلَّى}. وقد روى الترمذي هذا الحديث، ولم يذكر فيه عن عائشة، قلت: كذلك هو في الموطأ.

هذه السورة سورة عبس، هذا هو الاسم المشهور لها، وبعضهم ذكر لها أسماء أخرى، بعضهم قال: سورة الأعمى، وبعضهم قال: سورة ابن أم مكتوم، وبعضهم قال: سورة الصاخة، وبعضهم يقول: سورة السَّفَرة.

قوله -تبارك وتعالى-: {عَبَسَ وَتَوَلَّى * أَنْ جَاءَهُ الأَعْمَى}، لاحظ أنه جاء بهذا بصيغة الغائب، ما قال: عبستَ وتوليتَ، ولهذا بعض أهل العلم يشير هنا إلى معنىً يتصل بالأدب في الخطاب، يعني: أنه ما وجه ذلك إلى النبي -صلى الله عليه وسلم-؛ لأن في مثل هذه الألفاظ ثقلاً على السامع، فما واجهه بها، وإنما قال: {عَبَسَ وَتَوَلَّى * أَنْ جَاءَهُ الأَعْمَى}، وهذا كقوله -تبارك وتعالى- في سورة الكهف، لما ذكر خبر موسى -صلى الله عليه وسلم- مع الخضر، قال: {أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا} [الكهف: ٧٩]، نسب العيب إلى نفسه، ولم ينسبه إلى الله، ما قال: فأراد ربك عيبها، وإنما قال: {فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا}، ولما ذكر الغلام الذي قتله قال: {وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا * فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا}

---

[1] - أخرجه الترمذي، أبواب تفسير القرآن عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ومن سورة عبس (٤٣٢/٥)، رقم: (٣٣٣١).

[الكهف: ٨٠-٨١]، ثم لما ذكر الجدار قال: {فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ} [الكهف: ٨٢]، وفي العيب نسبه إلى نفسه، هذا من الأدب في المخاطبة، مثل قول إبراهيم -صلى الله عليه وسلم-: {وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ} [الشعراء: ٨٠] فنسب المرض إلى نفسه، وأضاف الشفاء إلى الله -عز وجل-، {وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى} [الضحى: ١ - ٣]، فلم يقل وما قلاك؛ لأنها ثقيلة، فالأدب بالخطاب مطلوب، ولذلك لا يحسن بالمحاضر أو الخطيب أن يواجه الناس بعبارات تثقل على أسماعهم، لكن يمكن أن يتكلم بطريقة أخرى، كأن يقول: نحن، فلا يقول: أنتم تفعلون كذا، وتفعلون كذا، وتفعلون كذا.

وقد أعطاني أحد الفضلاء مرة محاضرة قبل أن ينشرها مسجلة عن تربية الأطفال، فقال: ما رأيك فيها؟ وهو رجل من أهل العلم، ولكن لفت نظري أن عبارة تتكرر كثيراً، يخاطب الموجودين بعبارة خطاب، يقول لهم كثيراً، وسمعت آخر يخطب ويقول: أنتم شابهتم النصارى، واتبعتم سبيلهم، فاحتفلوا بالمسيح واحتفلتم بالمولد النبوي، وذكر أشياء من وجوه المشابهة للنصارى، يخاطبهم بها، ويقررهم بها، كان الأولى أن يقال: وقع بعض الناس، بعض المسلمين، أو يقول: نحن نفعل كذا، نحن وقعنا في كذا، نحن في كذا، ما يكون بأسلوب يخاطب الناس بطريقة تزعج.

ففي قوله: {عَبَسَ وَتَوَلَّى} لم يقل: عبستَ وتوليتَ، وعبس: بمعنى كلح وقطَّب وجهه، والعبوس معروف: قبض وجهه تكرهاً، يعني: لما جاءه الأعمى في هذا التوقيت تغيرت معالم وجهه – صلى الله عليه وسلم -، قطّب.

والأعمى لم يكن يراه فلا يتأثر بذلك، ومع ذلك عاتبه الله-عز وجل-، فكيف لو كان يراه فيتأذى به؟!، فإن مثل هذا التصرف لا يوجه لمن يأتي طالباً للهدى، ولو كان التوقيت غير مناسب، ولو كنت منشغلاً في غاية الأهمية، فهذا تعليم من الله -عز وجل-، إذا كان يعاتب أفضل الخلق، ويقول له: {عَبَسَ وَتَوَلَّى * أَنْ جَاءَهُ الأَعْمَى}.

فالمشاعر الجيدة تجاه الآخرين والتعامل معهم بالأسلوب الأمثل والأرقى حتى لو كان ذلك لا يشعرون به هو المطلوب من المسلم، فهذا تعليم من الله -عز وجل- بأمرين:

الأول: الإقبال على من ينتفع، وعلى من يحرص على العلم، فالعلم يُبذل لمن يرغب فيه، ويطلبه، ولا يبذل لمن يكون زاهداً فيه، ومن مساوئ التعليم الإجباري أنك تلقي العلم لقوم هم أزهد الخلق فيه، إلا من رحم الله -عز وجل-، فهذا من أصعب الأشياء، يموت الإنسان مراراً وهو يرى صرعى لا يرفعون رأساً بالعلم، ولا يحفلون به، وإذا غاب عنهم من يعلّمهم فذلك عيد، وإذا أعطاهم من العلم وفاض عليهم من الفوائد والمسائل ضاقوا ذرعاً بذلك، وهذه مشكلة كبيرة، وبلاء عظيم، أن يبذل العلم لمن يزهد فيه، فهو من أصعب الأشياء على النفس.

الأمر الثاني: هو أن هؤلاء الذين يطلبون العلم أو يسألون عنه، أو يستفتون أو نحو ذلك قد لا يوفقون، إما في اختيار الوقت المناسب، أو في الطريقة، في طريقة السؤال عن العلم، قد يبادرك بمجرد ما تسلّم من الصلاة، ويأتيك مباشرة يريد أن يسأل، أو يكون بطريقة غير مناسبة، فأحياناً يسأل بمقدمة استفزازية، كأن يقول: "أنت

فاضي"؟ فمقدمة السؤال بهذه الطريقة تستفز النفس، "كيف فاضي"؟!، فالمؤمن في شغل شاغل، لكن هذا من الشغل، فلو أنه تلطف بالسؤال وقال: هل أستطيع أن أسأل الآن؟، هل الآن الوقت مناسب؟، وأحياناً يبدأ بطريقة: جاوِبْ، ضروري الآن، وهذا الأسلوب ممكن أن يستخدم مع واحد من أصغر أولادك، أو واحد يشتغل عندك، لكن تأتي وتخاطب الناس بهذه الطريقة، أو أخرى ترفع صوتها غاضبة: اتقوا الله، أو تكتب رسالة: أنتم تأخذون رواتب، وجالسون في بيوتكم، ما تردون على أسئلتنا، وثالث يقول: أنت لماذا تنشر رقمك إذا كنت لا ترد؟، فهؤلاء تصدر منهم تصرفات تحتاج إلى صبر وتحمل، فالنبي -صلى الله عليه وسلم- وهو قدوتنا ومعلم الناس يأتيه من يقول له: أعطني فإنك لا تعطي من مال أبيك ولا مال أمك، يخاطب النبي -صلى الله عليه وسلم- بهذا، فكل ذلك ينبغي أن يكون موطّناً للنفوس على الصبر.

{أَن جَاءهُ الْأَعْمَى} [عبس: ٢] أي: لأجل أن جاءه الأعمى يسأل في هذا الوقت الذي كان النبي -صلى الله عليه وسلم- فيه مشغولاً.

قال: {وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى} [عبس: ٣] وما يشعرك لعله يحصل له زكاة وطهارة في نفسه؟، فإن كان ابن أم مكتوم -رضي الله عنه- في ذلك الوقت لم يسلم بعد فيكون المراد {يَزَّكَّى} يعني: يدخل في الإسلام، يحصل له الزكاء بالإيمان، وبعض أهل العلم كابن العربي يقول: لا يُعلم بالتحديد متى كان وقت دخول ابن أم مكتوم في الإسلام،

{لَعَلَّهُ يَزَّكَّى} فإن النفوس تتزكى بالإيمان والعمل الصالح، وشرائع الإيمان هي إيمان، فإذا كان قد دخل في الإسلام فيحصل له تزكية بهذا العلم.

ابن زيد يقول في قوله: {وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى} [عبس: ٣] أي: ينتفع، لكن من أهل العلم من قال: {وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى} يعني: الكافر، يعني لا ينتفع، وأنت مقبل عليه، قال: {وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى} يحصل له زكاة وطهارة في نفسه {وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى} يحصل له اتعاظ أو انزجار عن المحارم، بمعنى أنه بين أمرين: إما أن يحصل له تزكية، إن كان لم يسلم بعد فيدخل في الإسلام، أو يحصل له ذكرى فينتفع بها في يوم من الدهر، وإن كان قد أسلم فإنه إما أن يزكى يتعلم من شرائع الإيمان أشياء جديدة تحصل له بها تزكية، أو يحصل له بذلك اتعاظ وتذكر واعتبار فينتفع {وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ} [الذاريات: ٥٥]، هذا الذي ينبغي الإقبال عليه.

قال: {أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى * فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّى} [عبس: ٦- ٥]، استغنى عن الإيمان، استغنى عن دعوتك، عما تخاطبه به، ويحتمل أن يكون {اسْتَغْنَى} يعني: صار ذا غنى، من هؤلاء الكبراء، كانوا من الأغنياء، وكما يقول ابن جرير: استغنى بماله، يعني: هؤلاء الذين استغنوا عن دعوتك وعن الإيمان بما صار لهم من المال والجاه والقوة والولد وما إلى ذلك، فهؤلاء ليسوا أصحاب أولوية في توجيه الخطاب إليهم على حساب من يحرص على هذا الإيمان وهذا العلم، لكن أن يسوي بين الناس، أو يقدم هؤلاء أهل الحرص، وهم في الغالب الضعفاء والفقراء.

{أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى*فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّى} [عبس: ٥-٦]، ابن كثير يقول: أما الغنيّ فأنت تتعرض له لعله يهتدي، {فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّى} التصدي يقال للإقبال على الشيء والإصغاء، فأنت له تصدى، هذا تُعرض عنه وهذا تصغي إليه وتقبل عليه.

يقول: {وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى} [عبس: ٧] ما أنت بمطالب به إذا لم يحصل له زكاة؛ وهذا يدل على أن المراد والمقصود بقوله: {وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى} الأعمى، وهنا {وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى} يعني: ما أنت بمطالب به إذا لم يحصل له زكاة، فهنا "ما" على قول ابن كثير نافية، يعني: أن هذا لا يضرك، لن تحاسب على هذا، لن تلحقك تبعة لكون هذا الإنسان أعرض وكفر، فإن كفره يرجع عليه، وابن جرير يقول: أي شيء عليك ألا يتطهر من كفره فيسلم، يعني: لا شيء عليك، هذا بمعنى قول ابن كثير: ما أنت بمطالب به إذا لم يحصل له زكاة.

ومن أهل العلم من يقول: إن "ما" استفهامية، وكلام ابن جرير يحتمل هذا، {وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى}، ما يضرك إذا لم يتزكَّ؟، ما الذي يلحقك في ذلك؟.

{وَأَمَّا مَن جَاءكَ يَسْعَى*وَهُوَ يَخْشَى} [عبس: ٨-٩] أي يقصدك ويؤمك، والتزكية -كما قلنا في السابق- بالإيمان والعمل الصالح، والسعي، {وَأَمَّا مَن جَاءكَ يَسْعَى} [عبس: ٨] هل المقصود به السعي المعروف وهو الإسراع في المشي أو المقصود به الناحية العملية الانتفاع والاهتداء وما إلى ذلك؟، {وَجَاء رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى} [القصص:٢٠] المراد به الإسراع بالمشي.

فهذا جاء يسعى وهو يخشى، جاء يسعى إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- فيكون ذلك بالسير إليه سيراً حثيثاً، وأيضاً فإن ذلك منه عملٌ وجِدٌّ على طلب الهداية.

قال: يقصدك ويؤمك ليهتدي بما تقول له، {فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّى} [عبس: ١٠] أي تتشاغل، ومن هنا أمر الله تعالى رسوله -صلى الله عليه وسلم- أن لا يخص بالإنذار أحداً بل يساوي فيه بين الشريف والضعيف إلى آخره.

وإقبال النبي -صلى الله عليه وسلم- على هؤلاء الكبراء لم يكن من أجل دنياهم، ففعلُ النبي -صلى الله عليه وسلم- لا غضاضة فيه من جهة حرصه -صلى الله عليه وسلم- على اهتداء هؤلاء؛ لأن هؤلاء سيهتدي مَن وراءهم، من هذا المنطلق، لكن ذلك يكون مذموماً إذا كان على حساب الضعفاء الطالبين للهداية، الراغبين فيها، ويكون الذم فيه أعظم إذا كان ذلك على سبيل المصانعة والمحاباة لهم، ويكون ذلك أعظم في الذم إذا كان من أجل الملق والتقرب إليهم لنيل دنياهم والحظوة عندهم وما إلى ذلك، هذه مراتب، يعني: من الناس من يقبل عليهم لعلهم يهتدون فينفع الله بهم، ومن الناس من يقبل عليهم مجاملة لهم ومصانعة لهم؛ لأنهم لهم منزلة في المجتمع ولهم.. إلى آخره، فهو يداريهم ويجاريهم، ومنهم من يفعل ذلك من باب الملق، وطلب دنياهم أو حصول الجاه عندهم وما أشبه ذلك، هذا أعظم في الذم وأقبح، ولا يليق بطالب العلم أن يصير بهذه المنزلة؛ ولهذا قالوا عن الفقيه الذي يتردد على أبواب الأغنياء: لص، فإذا رأيت الفقيه يتردد على أبواب الأغنياء فمعنى ذلك أنه لص، يعني هو لماذا يتردد على أبوابهم؟ من أجل دنياهم، لماذا لا يتردد على أبواب الضعفاء والفقراء؟ فهذا أسوأ الحالات، ودونه أن يكون من أجل أن الله ينفع بهم، لكن لا يكون على حساب المحتاجين للعلم، وإلى آخره، فقد تجد أحياناً طالب العلم لربما يكثر من مجالسة هؤلاء الذين هم أزهد ما

يكونون بالعلم الذي عنده، ويكون الحديث كله أحياناً في قضايا بعيدة عن العلم، أو يتقصد أن يأتي لهم بأشياء من المُلح مما يطيب لهم من الشهوتين، لعلهم يعجبهم كلامه ويضحكون ويأنسون، ويأتي لهم بنوادر ولطائف وحكايات وأشياء جميلة، سواءً من كتب الأدب أو من غيرها فيطربون لذلك ويأنسون به، ويعجبون به وبمجالسه، ويبحثون عنه في أوقات سمرهم، فإن المجلس لا يطيب ولا يعلو الضحك إلا إذا حضر، فإنه يأتيهم بأشياء ما عرفوها ولا اطلعوا عليها من بطون الكتب، وهذا قبيح، لا يليق أبداً بطالب العلم، قد يكون طالب العلم يعتذر من طلاب العلم، لا يجلس لهم ولا بأدنى ما يمكن بأن يقدم ساعة في الأسبوع، بينما الأوقات مصروفة لغيرهم من أمثال هؤلاء أهل الدنيا في كل يوم، كل يوم مجلس لا يتحدث فيه عن العلم، وإنما يتحدث فيه عن أمور أخرى، ولا يخرج فيه الإنسان إلا بقلب قاسٍ ونفس مظلمة.

هذا غير صحيح، العلم يبذل لمن يحرص عليه، ومن يرغب فيه، وعظم الرغبة يكون سبباً للمزيد منه، وإنما يقدم الإنسان لنفسه، وينبغي أن يعلم الناس لا سيما هؤلاء الذين في المدارس، والجامعات وما أشبه ذلك أنهم هم الصورة التي تنعكس على من يعلمهم، فإذا لم ير فيهم الرغبة فإن نفسه تنقبض من بذل شيء يذكر؛ لأنه لا يرى المحل القابل، وفي مجالس العلم في المساجد قد يأتي من الراغبين لكن قد تبدو بعض المظاهر التي تدل أحياناً على انصراف، مكالمة في الجوال أثناء الدرس، أو النوم، وما أشبه ذلك، فكأن الإنسان جالس يتحدث لمن؟، هذا الكلام يصرف لمن؟، هذه الأنفاس تصرف لمن؟ فينبغي أن يكون الإنسان في غاية الحرص والإقبال والاستفادة، ولا يظهر منه شيء يدل على انشغاله أو زهده أو انصرافه فيكون ذلك سبباً لانتفاعه من الجهتين، يصغي لما يسمع، ويكون ذلك باعثاً للإفادة، والله المستعان.

وقوله تعالى: {كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ} [عبس: ١١] أي: هذه السورة، أو الوصية بالمساواة بين الناس في إبلاغ العلم من شريفهم ووضيعهم.

وقال قتادة والسدي: {كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ} يعني: القرآن.

قوله: {كَلَّا} يعني: ما الأمر كما تفعل، كما يقول ابن جرير -رحمه الله-، {إِنَّهَا} الضمير يرجع إلى ماذا؟ بعضهم يقول: إلى الآيات المذكورة هذه، وبعضهم يقول: السورة، كما يقوله ابن جرير -رحمه الله-، يقول: أو الوصية بالمساواة بين الناس، يعني: مضمون الآيات.

وقول قتادة والسدي: يعني القرآن، لا شك أن القرآن كله تذكرة وموعظة، لكن هنا الإشارة إلى شيء مذكور كأنه قريب العهد، فهذا الذي ذكر في هذه السورة أو في هذه الآيات تذكرة، يحصل بها التذكير والتذكر.

{فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ} [عبس: ١٢] أي: فمن شاء ذكر الله تعالى في جميع أموره.

{فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ} أي ذكر ربه، ذكر الله.

ويحتمل عود الضمير إلى الوحي؛ لدلالة الكلام عليه.

ولهذا ابن جرير -رحمه الله- يقول: {فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ} أي: ذكر تنزيل الله ووحيه، وبعضهم يقول: هذه تذكرة فمن رغب فيها اتعظ بها وعمل بموجبها، {فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ}، اتعظ بمضامينه وهداياته، واعتبر بما فيه من العبر، فإن هذا القرآن ذكرى، والذكرى تنفع المؤمنين، {فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ} [عبس: ١٢]، من شاء اتعظ واعتبر بما فيه وانتفع.

وقوله تعالى: {فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ * مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ} [عبس:١٣-١٤] أي: هذه السورة أو العظة، وكلاهما متلازم، بل جميع القرآن {فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ} أي: معظمة موقرة.

هذه التذكرة في صحف مكرمة؛ ولهذا قال: هذه السورة أو العظة، وهما متلازمان، {فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ} أي: معظمة، والكريم هو الشريف من جنسه، يقال له كريم، تقول: هذا نبات كريم، وهذا كلام وقول كريم، وهذا جوهر كريم، وهذا رجل كريم، وهذا شهر كريم.

فهذه الصحف معظمة، مرفوعة، عالية القدر، الرفع هنا يشمل الأمرين يعني قال: عالية القدر والذكر {مَرْفُوعَةٍ} [عبس: ١٤]، لا تصل إليها الشياطين، ولا تتنزل بها.

{فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ * مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ} ابن جرير يقول: اللوح المحفوظ، وبعضهم يقول: الصحف التي في أيدي الملائكة؛ لأنه قال: {فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ * مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ * بِأَيْدِي سَفَرَةٍ} [عبس : ١٣ - ١٥]، والسفرة: هم الرسل السفراء بين الله -عز وجل- وخلقه، حملة الرسالات، {اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ} [الحج: ٧٥]، فالملائكة فيهم رسل، ولهم مهام متنوعة، من هؤلاء الملائكة من يكونون سفراء، قال - صلى الله عليه وسلم -: ((الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة))[٢]، فلما كان مشتغلاً بالوحي ماهراً به صار مع هؤلاء مرافقاً، وصارت مرتبته عالية، وهو أعظم وأرفع من ذاك الذي يتتعتع فيه فله أجران، لكن المزية لا تقتضي الأفضلية، ذاك مرتبته أعلى وأعظم.

ابن جرير يقول: اللوح المحفوظ، والله -عز وجل- أخبر عن القرآن بأنه في لوح محفوظ، لا شك أن القرآن مكتوب في اللوح المحفوظ، ولكن القرآن أيضاً له تنزلات أخرى، نزل في اللوح المحفوظ، ونزل في بيت العزة من سماء الدنيا، وهو صحف بأيدي الملائكة، كأن الآية هنا تشير إلى ذلك، مع أنه يحتمل أن يكون اللوح المحفوظ، لكن لما قال الله -عز وجل-: {بِأَيْدِي سَفَرَةٍ * كِرَامٍ بَرَرَةٍ} [عبس: ١٥-١٦] دل على أن المقصود الصحف التي بأيدي الرسل الذين ينزلون بالوحي ويبلغون رسالات الله -عز وجل- إلى من شاء من البشر، جبريل -صلى الله عليه وسلم.

{فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ} [عبس: ١٣] ليس المقصود به أنه هذا المصحف الذي بأيدينا، وكذلك في قوله: {فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ * لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ} [الواقعة: ٧٨-٧٩]، هناك الكتاب المكنون المقصود به اللوح المحفوظ، {لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ} [الواقعة: ٧٩] يعني: الملائكة، لكن يؤخذ من هذا الموضع، يؤخذ من هذه الآية أنه إذا كان في صحف مكرمة فينبغي أن يكرم هذا القرآن الذي بين أيدينا، فلا يوضع في مقام، أو في مكان يمتهن فيه، ولا يكون التعامل معه بحيث يصير إلى حال من الامتهان، فبعض الناس يجعل المصحف مثلاً صندوقاً أو بوقاً، بوقاً كأنْ يثنيه إذا كان جزءاً، يجعله كالبوق، أو يجعله صندوقاً يضع فيه أشياء، أوراقاً، يضع فيه ملفاً، يضع فيه أشياء، هذا خطأ، أو يضع المصحف حيث يمتهن، وللأسف هذا كثير اليوم، انظر عندما تذهب لتصلي في الحرم مثلاً، تجد بعض الناس أحياناً يضع نعليه فوق بعض ويضع المصحف فوقها، أو يضع المصحف على الأرض وهو يعلم أن المارة كثير، هذا يضربه برجله، وهذا يطؤه دون أن يشعر، وهذا يقفز

---

[٢] - أخرجه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب {يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجا} [النبأ: ١٨]: زمرا (١٦٦/٦)، رقم (٤٩٣٧)، ومسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل الماهر في القرآن، والذي يتتعتع فيه (٥٤٩/١)، رقم (٧٩٨).

فوقه، ويعلم أن الذين يمرون كثير وأنه سيكون عرضة لكل ذلك، بل رأيت بعض من يدخل مستعجلاً في بعض المساجد حتى يدرك الدرس، ويضع كتبه بما فيها التفسير في دروج الأحذية، هكذا يتعامل مع العلم وكتب العلم، عند الأقدام، هذا ما يليق، فإذا كان هذا القرآن الله سماه كريماً وعزيزاً وصفه بالعزيز والكريم، فينبغي أن يكون التعامل معه بإكرام.

وإذا كان الذي في السماء {لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ} [الواقعة: ٧٩]، فينبغي أن يكون هذا الذي بين أيدينا لا يمسه أيضا إلا المطهرون، وهذا ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- وذكره ابن القيم، وسيأتي -إن شاء الله- في تطبيقات التدبر، في قسم منه اسمه التفسير الإشاري، في الأنواع الصحيحة من التفسير الإشاري وهي قليلة جداً، هذا منها، ما ذكره العلماء هنا {لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ} الذين فسروا الكتاب المكنون باللوح المحفوظ قالوا: ويؤخذ منه إذا كان الذي في السماء، إذا كان اللوح المحفوظ، إذا كان لا يسمه إلا المطهرون فينبغي أن يكون هذا أيضاً كذلك، هذا اسمه التفسير الإشاري، يعني: من باب أن الشيء بالشيء يذكر، أو من باب الاعتبار، أو أشبه ما يكون بالقياس أو نحو ذلك، يعني لا يخضع لقاعدة من قواعد الاستنباط المعروفة بطرق الاستدلال.

وإذا كان القرآن {فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ * مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ * بِأَيْدِي سَفَرَةٍ * كِرَامٍ بَرَرَةٍ} [عبس : ١٣ - ١٦]، فينبغي لحملة القرآن أن يكونوا كراماً بررة، هذا وصف الذين في السماء، فينبغي أن يكون حملة القرآن، وأن يكون المشتغلون بالقرآن، وأن يكون الحفاظ والقراء، والمعلمون كذلك، أن يتخلقوا بهذه الأخلاق، والآجري -رحمه الله- تكلم بكلام شديد على الذين يكونون من حملة القرآن، ولكنهم لهم ممارسات وسلوكيات لا تتفق مع ما يحملون، فذكر الإقبال على إقراء الأغنياء، والكبراء، والإعراض عن الفقراء، وكيف إذا جاءه ضعيف فقير زجره ونهره، وإذا جاء غني أكرمه، وذكر التكسب بالدنيا، وطلب الدنيا بالقرآن، وما أشبه ذلك، هذه الأشياء يعني ينبغي أن تكون حاضرة، حامل القرآن من أعز الناس نفساً، لا يمد يده.

رأيت مرة رجلاً يحمل مؤهلاً من أعلى المؤهلات، ويقول: أنا متفرغ لتعليم القرآن في بلدي، فقلت له: وأين تعمل؟ قال: ما أعمل، ويحمل دكتوراه، يقول: أنا فقط متفرغ لتدريس القرآن، قلت: ومن أين تكتسب؟ قال: الطلاب بعدما يخرجون من الحلقة يذهبون في الطرقات ويسألون الناس، ثم يعطونني، قلت: يعني أنت تأخذ أوساخ الأوساخ، كيف تأخذ هذا الذي يسألونه ويعطونك إياه؟! قال: نعم، من أين نأكل؟ قلت: تعمل بيدك وتشتغل، قال: هكذا أدركنا الناس منذ قرون في بلدنا، قلت: بئس ما أدركتموهم عليه، تربون هؤلاء حملة القرآن على الشحاذة، والسؤال، ثم يعطونك هذا؟ فهذا لا يورث إلا المهانة والذل؛ ولذلك المفترض أن حامل القرآن يكون من أعز الناس وله هيبة، وتجد الوجه المشرق، وتجد أنوار القرآن عليه، لكن لماذا هذه المهانة أحياناً تحصل لدى بعض الناس ممن يحمل القرآن، مع أنه كتاب عزيز؟، السبب هو هذه الممارسات، ومن قديم كان في بعض البلدان قراء كبار أحياناً تجدهم يذهبون للمآتم وغيرها يقرءون من أجل أن يأخذوا الأموال، ويحضرون في حفلات وفي مجالس كبراء وكذا، يقرءون ويأخذون الأموال، ورأيتهم في المسجد الحرام قبل حوالي ثلاثين سنة، يصفّون صفوفاً، عُميان ويقرءون قراءة من أجمل ما يكون، يقرءون قراءة مع بعض، كل واحد يقرأ لوحده، جالسون وكل واحد مادٌّ يده عند مداخل الصحن، هكذا يكون القرآن! والموضة

الجديدة الآن لدى بعض القراء يسميها استضافات، يذهب دول غنية، عند هؤلاء خمسة أيام، وعند هؤلاء ثلاثة أيام، وعند هؤلاء أسبوع، وهذا يعطيه كذا، وهؤلاء يعطونه كذا، وهؤلاء يعطونه كذا، وهو مشغول طول الشهر، والآن أيضاً أثناء السنة، أربعاء وخميس وجمعة، أنا أرى أن لا يُصلى خلف هؤلاء، أنا لا أصلي خلفهم؛ لأن هذا متكسب بالقرآن، يتكلف ويتصنع من أجل الدنيا، وطلب المال، سواء حدّد أو لم يحدد، هو ما جاء إلا من أجل هذا، نسأل الله العافية والهداية للجميع.

انتهى الوقت.

{مَرْفُوعَةٍ} أي: عالية القدر، {مُطَهَّرَةٍ} أي: من الدنس والزيادة والنقص، وقوله تعالى: {بِأَيْدِي سَفَرَةٍ} قال ابن عباس، ومجاهد، والضحاك، وابن زيد: هي الملائكة.

السفرة جمع سافر؛ لأنهم يُسفِرون ويَسفرون بالوحي، هكذا يقول أهل اللغة، وذكر هذا ابن جرير -رحمه الله-، وبعضهم قال كمجاهد: هم الملائكة الكاتبون لأعمال العباد، لكن هذا يتعلق بالوحي فهذا فيه بُعد، وقال البخاري: سفرة: الملائكة، يقال: سفرتْ يعني: أصلحتْ بينهم، جُعلت الملائكة إذا نزلت بوحي الله تعالى وتأديته كالسفير الذي يصلح بين القوم، والسفراء هم الواسطة بين هؤلاء وهؤلاء، الذي يصلح بين الناس ونحو ذلك يقال له سفير، فهؤلاء سفرة يسفرون بالوحي، الملائكة -عليهم الصلاة والسلام.

وقال البخاري: سَفَرَةٌ: الملائكة، سَفرتْ: أصلحتْ بينهم، وجُعلت الملائكةُ إذا نزلت بوَحْي الله وتأديته كالسفير الذي يصلح بين القوم.

وقوله تعالى: {كِرَامٍ بَرَرَةٍ} [عبس: ١٦] أي: خُلقهم كريم حَسَنٌ شريف، وأخلاقهم وأفعالهم بارة طاهرة كاملة، ومن هاهنا ينبغي لحامل القرآن أن يكون في أفعاله وأقواله على السداد والرشاد.

روى الإمام أحمد عن عائشة -رضي الله عنها- قالت: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((الذي يقرأ القرآن وهو ماهر به مع السفرة الكرام البررة، والذي يقرؤه وهو عليه شاق له أجران)) [٣]. **أخرجه الجماعة.**

---

٣ - أخرجه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب {يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجا} [النبأ: ١٨]: زمرا (١٦٦/٦)، رقم: (٤٩٣٧)، ومسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل الماهر في القرآن، والذي يتتعتع فيه (٥٤٩/١)، رقم (٧٩٨).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة عبس من الآية (٣١) إلى الآية (٤٠)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد.

يقول الله -تبارك وتعالى- معاتباً نبيه -صلى الله عليه وسلم- حينما جاءه ابن أم مكتوم وهو مشتغل بدعوة كبراء قريش إلى الإسلام: {عَبَسَ وَتَوَلَّى} [عبس: ١] كلح وقطّب بوجهه وأعرض عن الأعمى، {أَن جَاءهُ الْأَعْمَى} [عبس: ٢]، فعل ذلك لأنْ جاءه الأعمى وهو في هذه الحال وبهذا الاشتغال، {وَمَا يُدْرِيكَ} [عبس: ٣] وما يشعرك، وما يعلمك لعله ينتفع، وتحصل له تزكية بالإيمان والعمل الصالح، أو تحصل له ذكرى فيتعظ ويعتبر.

{أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى} [عبس: ٥] استغنى بما في يده من المال، واستغنى بجاهه، واستغنى عن دعوتك، واستغنى عن الهدى الذي تحمله وتدعو الناس إليه، {فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّى} [عبس: ٦] تقبل عليه وتصغي إليه وهو زاهد فيما عندك.

{وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى} [عبس: ٧] وما يلحقك وما يضيرك؟، أيّ شيء عليك ألا يسلم وألا يهتدي؟، {وَأَمَّا مَن جَاءكَ يَسْعَى} [عبس: ٨] جاء وهو مُجد مجتهد في غاية الحرص يريد أن ينتفع ويستمع، {وَهُوَ يَخْشَى} [عبس: ٩] والخشية هي خوف مع علم بالمخوف منه، فهي خوف خاص، وهذا كله يشعر بأن ابن أم مكتوم -رضي الله عنه- في ذلك الوقت كان مسلماً، وصفه بأنه من أهل الخشية، {فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّى} [عبس: ١٠] تتشاغل عنه، تنصرف عنه، {كَلَّا} ليس الأمر كما صنعت، {إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ} [عبس: ١١] هذه الآيات، هذه السورة تذكرة، {فَمَن شَاء ذَكَرَهُ} [عبس: ١٢] فمن شاء تذكر واعتبر وانتفع بمضامينها، أو من شاء تذكر ربه -تبارك وتعالى- فخافه ورجاه، وأقبل عليه.

{فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ} [عبس: ١٣] هذه السورة، وهذه الآيات ولا شك أنها في اللوح المحفوظ، والصحف المكرمة هنا يمكن أن تكون أيضاً الصحف التي في أيدي الملائكة، هذه الصحف مكرمة لا ينالها رجس ولا دنس، ولهذا وصفها بأنها: {مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ} [عبس: ١٤]، فهي لا تنالها أيدي العابثين، ولا تصل إليها الشياطين، مرفوعة، وهي أيضاً مطهرة من كل دنس.

{بِأَيْدِي سَفَرَةٍ} [عبس: ١٥] وهم هؤلاء الملائكة السفراء بين الله -تبارك وتعالى- ورسله -عليهم الصلاة والسلام-، {كِرَامٍ بَرَرَةٍ} [عبس: ١٦] هم متصفون بذلك، والكريم هو كل شريف من جنسه، وهم أيضاً بررة، يعني أنهم في صفاتهم في غاية الطهارة والكمال والبر.

قال – تبارك وتعالى -: {قُتِلَ الإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ * مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ * مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ * ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ * ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ * ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ * كَلا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ * فَلْيَنْظُرِ الإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ * أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبّاً * ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقّاً * فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبّاً * وَعِنَباً وَقَضْباً * وَزَيْتُوناً وَنَخْلا * وَحَدَائِقَ غُلْباً * وَفَاكِهَةً وَأَبّاً * مَتَاعاً لَكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ}. [عبس: ١٧-٣٢].

يقول تعالى ذامًّا لمن أنكر البعث والنشور من بني آدم: {قُتِلَ الإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ} [عبس: ١٧] قال الضحاك عن ابن عباس: {قُتِلَ الإِنْسَانُ} لعن الإنسان، وكذا قال أبو مالك، وهذا لجنس الإنسان المكذب؛ لكثرة تكذيبه بلا مستند، بل بمجرد الاستبعاد وعدم العلم.

يعني هنا أمران، الأمر الأول: وهو المراد بقوله: {قُتِلَ}، والأمر الثاني: المراد بالإنسان، فقوله: {قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ} [عبس: ١٧] نقل عن ابن عباس -رضي الله عنهما-: لعن الإنسان.

وظاهر لفظ {قُتِلَ} أنه دعاء عليه بالقتل، وتفسيره باللعن كأنه تفسير بالمعنى، يعني بمعنى أنه إذا دُعي عليه بمثل هذا فهذا يقتضي طرده وإبعاده من رحمة الله -تبارك وتعالى-؛ لأن اللعن هو الطرد والإبعاد من رحمة الله، ففسر بـــ "لُعن" باعتبار أن هذا من لازمه، هذا معنى "قُتل".

والإنسان هنا هو جنس الإنسان المكذب بالبعث، وهذا هو اختيار ابن جرير -رحمه الله.

وأما الآيات الأخرى كقوله -تبارك وتعالى-: {كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى} [العلق: ٦]، {إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا} [المعارج: ١٩]، وما أشبه ذلك فهذا في جنس الإنسان، فإذا هُذبت نفسه بالتقوى والإيمان ارتفع ذلك بحسب ما لابسه من الإيمان والتقوى، فيحصل له التهذيب بحسب حاله وإيمانه، لكن جنس الإنسان من طبيعته أنه يطغى إذا حصل له الغنى، جنس الإنسان أنه بهذه الصفة، {إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا} [المعارج: ١٩-٢١]، ولهذا قال: {إِلَّا الْمُصَلِّينَ} [المعارج: ٢٢].

{إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ} [العصر: ٢]، هذا في جنس الإنسان إلا من استثني {إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ}.

قال ابن جريج {مَا أَكْفَرَهُ} [عبس:١٧] ما أشد كفره.

وقال قتادة: {مَا أَكْفَرَهُ} ما ألعنه.

"ما" يحتمل أن تكون استفهامية، والمعنى يتغير، ما الذي جعله كذلك وقد أحسن الله إليه؟ ما الذي حمله على ذلك وقد أعطاه الله وأولاه؟ ويحتمل أن تكون تعجبية، يعني: ما أشد كفره، ما أعظم كفره!.

ثم بيّن تعالى له كيف خلقه من الشيء الحقير، وأنه قادر على إعادته كما بدأه، فقال تعالى: {مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ * مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ} [عبس: ١٨-١٩] أي: قدّر أجله ورزقه وعمله وشقي أو سعيد.

{مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ * مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ} [عبس: ١٨-١٩]، يعني: يتكبر ويتعاظم على أي شيء؟

{مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ} قدَّر أجله ورزقه وعمله وشقي أو سعيد، وهذا المعنى صحيح يدل عليه حديث ابن مسعود -رضي الله عنه- لما ذكر بعْثَ الملَك إليه إذا كان له أربعة أشهر، فيؤمر بأربع كلمات[1]، فهذا من جملة التقدير، وبعضهم يقول: {فَقَدَّرَهُ} أي: فسواه وهيأه لمصالح نفسه، وهذا داخل في جملة التقدير، فخلق له اليدين، والرجلين، والعينين، وما أشبه ذلك، وبعضهم يقول: المقصود بالتقدير {خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ} يعني: أطواراً، وكل هذا داخل في التقدير، فالله -تبارك وتعالى- أطلق في هذا الموضع، {خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ}، قدّر كل ما يتعلق به، هيئته وصورته وأطواره وأجله ورزقه وعمله وشقي أو سعيد.

١- أخرجه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة (١١١/٤)، رقم: (٣٢٠٨)، ومسلم، كتاب القدر، باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته (٢٠٣٨/٤)، رقم: (٢٦٤٦).

والخلق يأتي بمعنى التقدير كما مضى عند تفسير قوله تعالى: {الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ} [الحشر: ٢٤]، الخلق بمعنى الإيجاد، لكن يأتي بمعنى التقدير، فالخالق في سورة الحشر يعني: المقدِّر؛ لأنه ذكر بعده البارئ، فالبارئ هو الموجد من العدم، والمصور أعطاه هيئة وصورة تليق به، فهذه ثلاثة معانٍ كلها داخلة في الخلق، ولكن لما ذكر الله هذه الأسماء الثلاثة من أجل أن لا يكون ذلك من قبيل التكرار في المعنى صار لكل منها معنى، فالخالق بمعنى المقدر، والبارئ الموجد من العدم، والمصور أعطاه الصورة الظاهرة، والتصوير يأتي بمعنى الخلق، كقوله تعالى: {وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ} [المائدة:١١٠].

والله -عز وجل- يقول: {الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ * فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاء رَكَّبَكَ} [الانفطار:٧-٨]، فهذا كله داخل في الخلق.

{ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ} [عبس: ٢٠] **قال العوفي عن ابن عباس: ثم يسر عليه خروجه من بطن أمه، وكذا قال عكرمة، والضحاك، وأبو صالح، وقتادة، والسدي، واختاره ابن جرير.**

{ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ}، ثم يسر عليه خروجه من بطن أمه؛ لأن السياق من أوله يذكر خلق الإنسان، فحينما يكون الإنسان نطفة يكون خروجه سهلاً، فالمرأة لا تشعر بخروج النطفة، بل إن ذلك يخرج منها عادة بعد الجماع، وإنما يبقى ما يحصل به تلقيح البويضة، وكذلك لما يكون علقة، لكن حينما يُنشئه الله خلقاً آخر -وقد يكون أكثر من ولد- إذا حان موعد خروجه انقلب بإذن الله، فصار رأسه إلى أسفل، ويتهيأ للخروج، ثم يخرج بعد ذلك بالطريقة التي يسرها الله -عز وجل.

{مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ} [عبس: ١٩]، فجاء بالفاء في التقدير، والفاء للتعقيب المباشر، وفي قوله: {ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ} جاء بـــ "ثم" التي تدل على التعقيب مع التراخي، فالجنين يجلس تسعة أشهر في بطن أمه.

وقال مجاهد: هذه كقوله تعالى: {إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً} [الإنسان: ٣] أي: بيّناه له ووضحناه وسهلنا عليه عمله، وهكذا قال الحسن، وابن زيد، وهذا هو الأرجح والله أعلم.

{ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ} كقوله: {وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ} [البلد: ١٠]، وقوله: {إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً} وهذا هو القول الثاني، فالسبيل -تذكر وتؤنث- بمعنى الطريق، طريق الهداية أو طريق الغواية، بيّن له الخير والشر، أرسل له الرسل، وأنزل عليه الكتب، فبعدما خلقه وقدره قال: {ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ} بيّن له طريق الهدى، وطريق الغواية، فهذه بمعنى هداية الإرشاد، وفي بعض المواضع قد يراد بها هداية التوفيق، يعني ما يتصل بخلق الإنسان وهدايته.

{ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ} [عبس: ٢١] **أي: إنه بعد خلقه له** {أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ} [عبس: ٢١] **أي: جعله ذا قبر، والعرب تقول: "قبرتُ الرجل" إذا وَلِيَ ذلك منه.**

هذا كلام العرب، ذكره الفرّاء وذكره ابن جرير -رحمه الله-، كثيراً ما ينقل عن الفرّاء، قد يسميه وقد لا يسميه، كما ينقل البخاري -رحمه الله- في تراجم الأبواب كثيراً معاني الغريب هذه، غير مرويات علي بن أبي طلحة عن ابن عباس.

وأقبره الله.

يعني هنا الفرق بين قبَره وأقبره، ومعنى وأقبره: جعله ذا قبر، وليس معناه قبره، تقول العرب: قبرتُ الرجل إذا ولِيَ ذلك منه، يعني: إذا قام هو بدفنه بقبره، وأقبره الله: يعني جعله ذا قبر.

وعضبتُ قرن الثور، وأعضبه الله، وبترتُ ذنَبَ البعير وأبتره الله، وطردتُ عني فلاناً، وأطرده الله، أي: جعله طريداً.

أعضبتُ قرنه يعني: كسرت قرنه، وأعضبه جعله أعضبَ، وبترتُ ذنب البعير وأبتره الله، يعني: جعله أبترَ.

هذا الفرق بين قبره وأقبره، {ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ} [عبس: ٢١] يعني: جعله ذا قبر، المراد الامتنان عليه بأن الله تصرف في خلقه بهذه الأطوار، وأيضاً إكراماً له بعد الموت جعله ذا قبر، فدفن الميت لا شك أنه إكرام له، تصور لو أن الناس إذا ماتوا أُخذ الواحد ورُمي في المزبلة، فهذا فيه غاية الامتهان، وفيه أذى له ولأهله، لو كان هكذا ما في دفن -قبر-، لكن يؤخذ ويغسل ويكفن ويصلى عليه، ويذهب معه الناس يشيعونه، ولهم أعظم الأجور في ذلك، في صلاتهم وفي تشييعهم، ثم بعد ذلك يتسارعون في دفنه، وهم أيضاً يؤجرون على هذا، ويقفون على القبر يستغفرون له، فهذا في غاية الإكرام، لكن لو أن الإنسان يؤخذ ويرمى إذا مات فهذا خلاف الإكرام، والله -تبارك وتعالى- قد أنعم على هذا الإنسان بهذه النعم المتوالية ابتداءً وانتهاءً، فعلى أي شيء يكفر؟ ما الموجب للكفر؟ لماذا يتمرد على ربه -تبارك وتعالى-، ويعرض عن الإيمان؟

وقوله تعالى: {ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ} [عبس: ٢٢] أي: بعثه بعد موته، ومنه يقال: البعث والنشور، {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ} [الروم: ٢٠]، {وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْماً} [البقرة: ٢٥٩].

في الصحيحين من رواية الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة: ((كل ابن آدم يَبْلى إلا عَجْبُ الذَّنَب، منه خُلق وفيه يُركَّب))[٢].

عجبُ الذَّنب معروف هو آخر ما يكون في العمود الفقري، في آخره.

وقوله تعالى: {كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ} [عبس: ٢٣] قال ابن جرير: يقول -جل ثناؤه-: كلا، ليس الأمر كما يقول هذا الإنسان الكافر من أنه قد أدى حق الله عليه في نفسه وماله، {لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ} [عبس:٢٣] يقول: لم يُؤدِ ما فُرض عليه من الفرائض لربه -عز وجل.

والذي يقع لي في معنى ذلك -والله أعلم- أن المعنى: {ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ} [عبس: ٢٢] أي: بعثه، {كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ} [عبس: ٢٣] أي: لا يفعله الآن حتى تنقضي المدة، ويفرغ القدَر من بني آدم ممن كتب الله أن سيوجدُ منهم ويخرج إلى الدنيا، وقد أمر به تعالى كوناً وقدراً، فإذا تناهى ذلك عند الله أنشر الله الخلائق وأعادهم كما بدأهم.

هذا المعنى الذي ذكره ابن كثير -رحمه الله- في قوله: {كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ} يعني: أن الله -تبارك وتعالى- لن يبعثه الآن، {ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ} بعثه من قبره، لكن يقول: لا يفعله الآن حتى تنقضي المدة ويفرغ القدر من بني آدم ممن كتب الله أنه سيوجد، {كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ}، لم يحصل، لم يتحقق بعد ما

٢- أخرجه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب {يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجا} [النبأ: ١٨]: زمرا (١٦٥/٦)، رقم (٤٩٣٥)، ومسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب ما بين النفختين (٢٢٧٠/٤)، رقم (٢٩٥٥).

قدّره الله -عز وجل- مما سيكون ويقع، فلابد من استتمام ذلك، هذا المعنى الذي ذكره ابن كثير -رحمه الله-، وبعضهم يقول: إن ذلك يرجع إلى الإنسان، وبعضهم يقول: إن ذلك للعموم.

{كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ} [عبس: ٢٣] يعني: فعل الله به هذه النعم، وأولاه، وخلقه، وحباه، وأعطاه، وأكرمه، ولم يفِ بحق الله -عز وجل- عليه، ولم يأتِ بالعبودية على الوجه الأكمل، وإنما هو ذو تقصير، هذا إذا حُمل على جنس الإنسان المؤمن والكافر، وإذا قيل: هذا في الكافر، {كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ} لم يحقق أمر الله، ولم يمتثل لإيمان فبقي على الكفر، والمعنى الذي ذكره ابن كثير يختلف عن هذا.

وقوله تعالى: {فَلْيَنْظُرِ الْإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ} [عبس: ٢٤] فيه امتنان، وفيه استدلال بإحياء النبات من الأرض الهامدة على إحياء الأجسام بعدما كانت عظاماً بالية وتراباً متمزقاً.

هذه دلائل للبعث، {فَلْيَنْظُرِ الْإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ} [عبس: ٢٤]، وما قبله كذلك: الذي خلقه من نطفه، ثم صار بهذه الهيئة، هذا الإنسان الذي يتصف بهذه الأوصاف من العلم والعقل، ويمشي ويتحرك ويذهب، هذا كله دليل قدرة الله -عز وجل- على البعث.

{أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا} [عبس: ٢٥] أي: أنزلناه من السماء على الأرض.

قال: {فَلْيَنْظُرِ الْإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ * أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا}، فيكون هذا كأنه بدل من الذي قبله، بدل من الطعام، {فلينظر الإنسان إلى طعامه}، فالمطر ينزل، ثم تنشق الأرض عن النبات، ثم ينبت هذا النبات حتى يستتم، ثم بعد ذلك يكون منه الحب أو نحو ذلك، أو الثمر، حتى يصل إلى الإنسان بهذه العملية المركبة..

{ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا} [عبس: ٢٦] أي: أسكناه فيها فدخل في تُخُومها، وتَخَلَّل في أجزاء الحب المودع فيها، فنبت وارتفع وظهر على وجه الأرض.

انظر حينما يكون النبات داخل الأرض، قال تعالى: {اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ} [فصلت:٣٩] فالنبات في البداية يكون داخل الأرض، ثم بعد ذلك تنتفخ الأرض بالنبات، ثم تنشق الأرض عن مسمار النبات، ضئيلاً ضعيفاً ثم ما يلبث أن يستتم، حتى بعد ذلك يصير منه الحب، سواء فيما يضعه الإنسان من البذور أو كان ذلك مما أودعه الله -عز وجل- في التربة.

فالتربة تحتفظ بالبذور مثل النباتات الصحراوية، فإذا ما نزل المطر خرجت النباتات والأزهار.

{فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا * وَعِنَبًا وَقَضْبًا} [عبس:٢٧-٢٨] فالحب: كل ما يذكر من الحبوب، والعنب معروف، والقضب هو: الفِصْفِصة التي تأكلها الدواب رطبة، ويقال لها: القَتّ أيضا.

{فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا} [عبس: ٢٧] جميع أنواع الحبوب، البر والشعير والأرز وغيره، "حبا"، {وَعِنَبًا وَقَضْبًا} [عبس: ٢٨]، القضب: الفِصفِصة -بالكسر- التي تأكلها الدواب رطبة، ويقال لها: القت أيضاً، ويقال: إنه يقال لها ذلك إذا يبست، وبعضهم يقول: القت هو الرطب، "قضباً" يقضب مرة بعد مرة، فسمي بالقضب الذي هو القطع، فكأنه لتكرر قطعه يقضب، فقيل له: قضب، كأن نفس القضب القطع، سُمي قضبا.

وهو نوع من النبات الذي تأكله البهائم؛ لأنه يُقضب مرة بعد مرة، يعني يُحصد أو يُحَش، ثم يظهر مرة ثانية، ويقال له: القت في نجد وهي لغة عربية فصحى، ويقال له في الحجاز: القضب، هذا يصدق على البرسيم، وهي من أنواع النبات كلما قُضب –قطع- يرجع من جديد، يجلس سنوات، فيكون علفاً لهذه الدواب.

ويقال لها: القتّ أيضاً، قال ذلك ابن عباس، وقتادة، والضحاك، والسدي.

يعني أن الخليل الفراهيدي يقول: يقال لها القت إذا كانت يابسة، الفِصفِصة رطبة، والقت يابس.

وقال الحسن البصري: القضب العلف.

هذا تفسير له بالمعنى، أصل القضب القطع فأطلق على هذا النوع من النبات الذي يُقطع مرة بعد مرة ثم يرجع.

{وَزَيْتُونًا} [عبس: ٢٩] وهو معروف، وهو أدْمٌ، وعصيره أدْمٌ، ويستصبح به، ويدهن به.

يعني يستفاد من زيته في إيقاد السُّرُج، {زَيْتُونِةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ} [النور:٣٥].

{وَنَخْلًا} [عبس: ٢٩] يؤكل بلحاً بسراً، ورطباً، وتمراً، ونيئاً، ومطبوخاً، ويعتصر منه رُبٌّ وخل.

الرُّب: عصارة التمر المطبوخة، يقال لها: رُب، فالتمر يعمل منه أشياء كثيرة جداً، أو ثمر النخيل على اختلاف مراحله يعمل منه أشياء كثيرة جداً من العصير وغير ذلك من الأشياء التي يعرفها الناس، وتوجد كتب خاصة في هذا فيما يمكن أن يستخرج من هذا الثمر ويعمل منه، والآن تعمل أشياء كثيرة تركب من هذا الثمر، مما يكون من قبيل الحلوى أو غير ذلك.

{وَحَدَائِقَ غُلْبًا} [عبس: ٣٠] أي: بساتين، قال الحسن وقتادة: {غُلْبًا} نخل غلاظ كرام، وقال ابن عباس، ومجاهد: كل ما التف واجتمع.

{وَحَدَائِقَ} الحدائق هي البساتين التي عليها سور أو حائط يحدق بها، قال الحسن وقتادة: {غُلْبًا} نخل غلاظ كرام، هذا ذكره جماعة من السلف، وأصل هذه المادة يدل على الشدة والغِلَظ، يقال: فلان أغلب الرقبة، يعني: أن رقبته عريضة، فهنا قال: نخل غلاظ كرام، كأنه من قبيل التفسير بالمثال؛ لأن الله قال: {وَحَدَائِقَ} والحدائق تضم أنواع الأشجار بما فيها النخيل، فهذه النخيل الغلاظ الكرام أدل على العظمة ولا شك أن هذا يعتبر أجود وأكمل في حال النخل إذا كان الجذع غليظاً، بخلاف الجذع الدقيق، فإن هذا يكون لضعف النخلة غالباً، أما الجذع الغليظ فهذا إذا كانت تُسمد بصورة منتظمة، وتسقى بصورة منتظمة، فإن جذوعها تكون عريضة، هذه كرام النخل.

وقال ابن عباس ومجاهد ومقاتل: "غلبا" كل ما التف واجتمع، وروي عن ابن عباس أنه قال: طوالاً، والله تعالى يقول: {وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ} [ق: ١٠]، فذكر لها ثلاثة أوصاف، وقال: {وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ} [الأنعام: ٩٩] يعني: قريبة، لا تحتاج إلى تسلق حتى يجنى منها الثمر، ويبحث عن أحد يصعد، ولربما فسد فيها التمر في أعلاها، والعالية يكون ثمرها أضعف من الدانية؛ لأن الماء لا يصل إليها مثل ما يصل إلى الدانية، فالامتنان بالدانية أعظم، لكن في المقام الآخر في سورة (ق) قال: {وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ}، فلكل مقام مقال، ففي مقام الامتنان على العباد امتن عليهم بالقريبة، يجنونها من غير تعب، الطفل يجنيها وهو جالس، وفي مقام العظمة -عظمة الخلق- ذكر الطوال، فأخرج الله بهذا المطر هذه النخيل التي تراها باسقة طويلة.

ورواية ابن عباس {غُلْباً} أي طوالاً يكمن أن يجمع بينها وبين كلام أهل العلم، وهي أنها عريــضة الأصــول طويلة، وهذا أوقع في نفس السامع، والله أعلم.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة عبس من الآية (٣١) إلى آخر السورة

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله تعالى: {قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ} [سورة عبس:١٧]، يقول الله -تبارك وتعالى- عن هذا الإنسان المكذب: {قُتِلَ الْإِنسَانُ} دعاء عليه، وذلك بمعنى اللعن، {مَا أَكْفَرَهُ}، ما أشد كفره مع ظهور ووضوح دلائل وحدانية الله -عز وجل- وقدرته على بعث الأجسام، أو قُتل الإنسان ما الذي أكفره مع ظهور ما سبق؟، ثم لفت نظره إلى ذلك فقال: {مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ} [سورة عبس:١٨] ما مبدؤه، ما مادته التي خلق منها؟ {مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ} [سورة عبس:١٩]، هذه النطفة اليسيرة، قطرة من الماء المهين خلقه الله -تبارك وتعالى- منها، {فَقَدَّرَهُ} جعله أطواراً يصير إلى علقة ثم مضغة ثم بعد ذلك يتحول إلى شيء آخر، وينفخ فيه الروح حتى يستتمّ، ثم إلى الدنيا إلى أن يموت، ثم بعد ذلك يكون في البرزخ ثم يبعث يوم القيامة، وقد قدر الله -عز وجل- عليه رزقه وأجله وعمله، {ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ} [سورة عبس:٢٠]، هداه النجدين، هداه طريق الخير وطريق الشر، أو يسره إلى سبيل الخروج من بطن أمه، {ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ} [سورة عبس:٢١]، بعد ذلك كله يموت، ثم إن الله -تبارك وتعالى- قد أكرم هذا الإنسان فأقبره، جعله ذا قبر، لا يُلقى في العراء بعد الموت فيكون ذلك شيناً فيه ومهانة، {ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ} [سورة عبس:٢٢]، إذا شاء بعثه من جديد كما خلقه من العدم، ثم قال: {كَلَّا} أي: أن ذلك لم يحن بعد {لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ} [سورة عبس:٢٣]، على قول ابن كثير، حيث بقي مما قدره الله -تبارك وتعالى- مما هو كائن قبل النشور والبعث لابد أن يقع.

وعلى قول الجمهور {كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ} [سورة عبس:٢٣] هذا الكافر لم يحقق ما أمره الله -عز وجل- به من الإيمان، أو أن جنس الإنسان لم يقم بما أوجب الله عليه من وظائف العبودية على الوجه اللائق، فلا يخلو العبد من تقصير.

{فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ} [سورة عبس:٢٤] هذا الطعام كيف جاء إليه، كيف يصل إليه؟، {أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا} [سورة عبس:٢٥]، وفي القراءة الأخرى {إِنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا}، ينزل المطر منصباً من السماء ثم بعد ذلك تنشق الأرض عن النبات، {ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا * فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا} [سورة عبس:٢٦-٢٧] أنواع الحبوب، {وَعِنَبًا وَقَضْبًا} [سورة عبس:٢٨] الأعناب، والقضب قلنا: يقال لِمَا يحصد ثم يعود ثانياً من الزرع الذي تأكله الدواب، {وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا * وَحَدَائِقَ غُلْبًا} [سورة عبس:٢٩-٣٠] هذه الأشجار ذوات الثمار والحدائق المسوّرة التي تستهوي الناظرين بجمالها وكمالها وجودتها، وامتلاء أشجارها، وضخامة سيقانها، وجذوعها، مع كثرتها وتقاربها والتفاف أغصانها.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، اللهم اغفر لنا ولشيخنا وللمستمعين ولجميع المسلمين، يا رب العالمين.

وقوله تعالى: {وَفَاكِهَةً وَأَبًّا} [سورة عبس:٣١]، أما الفاكهة فكل ما يُتفكه به من الثمار، قال ابن عباس: الفاكهة: كل ما أكل رطباً، والأبّ ما أنبتت الأرض مما تأكله الدواب ولا يأكله الناس، وفي رواية عنه: هو الحشيش للبهائم.

وروى أبو عبيد القاسم بن سلام عن إبراهيم التَّيمي قال: سُئِلَ أبو بكر الصديق -رضي الله عنه- عن قوله تعالى: {وَفَاكِهَةً وَأَبًّا} فقال: أيّ سماء تظلني، وأيّ أرض تقلني إن قلتُ في كتاب الله ما لا أعلم.

فأما ما رواه ابن جرير عن أنس قال: قرأ عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- {عَبَسَ وَتَوَلَّى} [سورة عبس:١] فلما أتي على هذه الآية: {وَفَاكِهَةً وَأَبًّا} قال: عرفنا ما الفاكهة، فما الأبّ؟ فقال: لعمرك يا ابن الخطاب إن هذا لهو التكلف، فهو إسناد صحيح، وقد رواه غير واحد عن أنس به، وهذا محمول على أنه أراد أن يعرف شكله وجنسه وعينه، وإلا فهو وكل من قرأ هذه الآية يعلم أنه من نبات الأرض، لقوله: {فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا * وَعِنَبًا وَقَضْبًا * وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا * وَحَدَائِقَ غُلْبًا * وَفَاكِهَةً وَأَبًّا} [سورة عبس:٢٧-٣١].

قوله -تبارك وتعالى-: {وَفَاكِهَةً} الفاكهة معروفة، وأما الأبّ فهنا يقول: ما أنبتت الأرض مما تأكله الدواب ولا يأكله الناس، وهذا الذي ذهب إليه ابن جرير -رحمه الله-، وأصل المادة يدل على الرجوع، على العوْد، أصل المادة، تقول: آب يئوب، والأوْب، وما إلى ذلك، كل هذا يرجع إلى معنى الرجوع، فالأبّ يقول في رواية: الحشيش للبهائم، رواية عن ابن عباس، الأول قال: ما أنبتت الأرض مما تأكله الدواب ولا يأكله الناس، والرواية الأخرى: الحشيش للبهائم، وهما بمعنى واحد، مع أن الضحاك قال ما هو أعم من هذا، قال: كل ما ينبت على وجه الأرض فهو الأبّ، والله قال: {مَّتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ} [سورة عبس:٣٢]، فهذا يُشعر -والله أعلم- أن ما ذكر منه ما يكون للناس، ومنه ما يكون للدواب والأنعام، فالحدائق والأعناب والفواكه وما إلى ذلك هذا للناس، وأما الأبّ فهو لدوابهم وبهائمهم، -والله تعالى أعلم-، وأما تحرج أبي بكر -رضي الله عنه- وكذلك ما جاء عن عمر فهذا كما قال ابن كثير -رحمه الله-: كأنه -يعني عمر- أراد أن يعرف شكله وجنسه وعينه. يعني: عين النبات، نبات معين اسمه الأبّ، لكن حينما يقال: الأبّ هو نبات، هذا لا إشكال فيه، أو يقال: ما تأكله الدواب والبهائم، هذا لا إشكال فيه، لكن هل هو نبت بعينه يقال له: الأبّ؟، هذا الذي وقع فيه التحرج، ومثل هذه المرويات عن السلف -رضي الله تعالى عنهم- تارة لكونه لم يبلغه المعنى، لم يظهر له المعنى، وتارة يفعل ذلك تورعاً، يعني ما جاء عنهم من التوقف أو التحرز في بعض المعاني أو نحو ذلك يكون على سبيل التورع، يتهيبون، الأصمعي إمام في اللغة، والمفردة التي جاءت في القرآن كان لا يجيب فيها ويقول: هذا مما جاء في القرآن؛ لشدة تحرزه، مع حذقه وعلمه وإمامته، والله المستعان.

قال: وعن مجاهد والحسن وقتادة وابن زيد: الأبّ للبهائم كالفاكهة لبني آدم.

وقوله تعالى: {مَتَاعاً لَكُمْ وَلأنْعَامِكُمْ} أي: عيشة لكم ولأنعامكم في هذه الدار إلى يوم القيامة.

يعني تتمتعون به في هذه الحياة إلى أن يأذن الله -عز وجل- بانقضائها.

{فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ * يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ * لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ * وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ * ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ * وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ * تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ * أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ} [سورة عبس:٣٣-٤٢].

قال ابن عباس: {الصَّاخَّةُ} اسم من أسماء يوم القيامة، عظمه الله، وحذّره عباده، قال ابن جرير: لعله اسم للنفخة في الصور، وقال البَغَويّ: {الصَّاخَّةُ} يعني صيحة القيامة؛ سميت بذلك؛ لأنها تَصُخّ الأسماع، أي: تبالغ في إسماعها حتى تكاد تُصمّها.

قوله -تبارك وتعالى-: {فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ} "إذا" هذه ما جوابها؟ بعضهم يقول: الجواب محذوف، ولكنه يفهم من قوله -تبارك وتعالى-: {لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ}، إذا جاءت الصاخة اشتغل كل أحد بنفسه؛ لشدة الهول وعظم المصاب.

يقول: {الصَّاخَّةُ} قال ابن عباس: اسم من أسماء القيامة، وقال ابن جرير: لعله اسم للنفخة في الصور، فيقال لها: الصاخة باعتبار أن ابن جرير -رحمه الله- يقول: إن الصوت هو الصاخّ، فهذه النفخة صاخة، صخ أذنه يعني: الصوت الشديد، بهذا الاعتبار؛ ولهذا يقول البغوي: الصاخة يعني صيحة يوم القيامة، وهذا بمعنى ما سبق، سميت بذلك لأنها تصخ الأسماع، أي تبالغ في الإسماع حتى تكاد تصمها، يعني: أنها صوت شديد يصدم الأسماع، فيقال: صخّ هذا الصوتُ الأسماع، صخ الآذانَ لشدة وقعه عليها، كاد أن يصمها، والأذن فيها جزء خلفها يقال له القوقعة لها مثل الخيوط المتدلية، هذه الخيوط إذا جاء الصوت يصدمها فيسمع الإنسان، فإذا جاء ما يصخ سمعه أتلف هذه الخيوط المتدلية، ثم بعد ذلك أتلف السمع، أي الأصوات القوية جداً؛ ولذلك تجد الناس الذين يعملون أحياناً على سماعات أوقاتاً طويلة قد يذهب سمعهم، والسبب أن هذه تتضرر فتتلف، فإذا جاء الصوت لم يعد هناك ما يصطدم به فيترجم عن هذا الصوت فيسمعه.

هذا معروف عند العرب، من شدة الصوت تصخ الآذان، وقد تُذهب السمع بالكلية، وأصلها من الصك الشديد، الصاخة: الصك الشديد، صخّه بكذا.

ولهذا {يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ} أي: يراهم، ويفر منهم، ويبتعد عنهم؛ لأن الهول عظيم، والخطب جليل.

وفي الحديث الصحيح في أمر الشفاعة: أنه إذا طلب إلى كلٍّ من أولي العزم أن يشفع عند الله في الخلائق يقول: ((نفسي نفسي، لا أسأله اليومَ إلا نفسي)) حتى إن عيسى ابن مريم يقول: ((لا أسأله اليوم إلا نفسي، لا أسأله مريم التي ولدتني))[1]؛ ولهذا قال تعالى: {يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ}.

قال قتادة: الأحب فالأحب، والأقرب فالأقرب، من هول ذلك اليوم.

---

١ - هو في الصحيحين لكن ليس بهذا اللفظ، وإنما يقول عيسى -عليه السلام- حين يطلب منه الشفاعة: ((إن ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله قط، ولن يغضب بعده مثله، ولم يذكر ذنبا، نفسي نفسي نفسي اذهبوا إلى غيري اذهبوا إلى محمد))، رواه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب {ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا} [الإسراء:٣]، برقم (٤٧١٢)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب أدني أهل الجنة منزلة فيها، برقم (١٩٤).

قوله: {يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ} ليس هذا هو جواب {فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ}، من جهة الإعراب يحتمل أن يكون بدلاً منه، {فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ} يعني: {يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ}، أو أنه منصوب بمقدر {فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ} أعني: {يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ}، فيكون تفسيراً للصاخة، أو بدلاً منها، لكن يكون الجواب مقدراً، والله أعلم.

{يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ}، يفر من أخيه وأمه وأبيه لماذا؟ {لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ} [سورة عبس:٣٧]، فبعض السلف -واختاره ابن جرير- يقول: يفر منهم؛ لئلا يطالبوه بالحقوق والمظالم، يعني يكون قصّر في حقوقهم، قصر في واجبه نحوهم، فيطالبونه به، فيفر منهم إذا رآهم، وهذا يدل على أنه يفر من غيرهم من باب أولى، فهذا قال به طائفة من السلف، وهو اختيار ابن جرير، ويحتمل غير ذلك، بعضهم يقول: يفر من أخيه وأمه... كراهية أن يروا ما به من الشدة -نسأل الله العافية-؛ لئلا يروه في حال يكرهونها، أو يكره أن يراه الناس عليها، أو لعلمه أنهم لا ينفعونه، ويمكن أن يقال -والله أعلم-: {يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ}؛ لأنه مشغول بنفسه، ليس لديه أي اقتدار على سماع ما بالآخرين أو الشكوى، أو المطالبة بحق، أو المطالبة بحسنة، فهو حينما يراهم يفر منهم؛ لأنه مشغول بنفسه ليس عنده قدرة على نفعهم بشيء، لا يستطيع أن يقدم لهم نافعة، فإذا رآهم فر منهم؛ لئلا يطالبوه بحسنات، أو لئلا يطالبوه بحقوق، كل ذلك وارد، فهو مشغول بنفسه عنهم، فإذا ذكر هؤلاء الذين يسمون الدائرة الأولى في القرابات، القرابة دوائر، فهذه الدائرة رقم واحد، الأصول والفروع، يعني الإخوة والأخوات، الأب والأم، الزوجة والأولاد، الدائرة الأولى، الذين هم أقرب الناس إليه، ومع ذلك يفر منهم، يعني الأخ هو العاضد، يعني الناصر، والأب محل تعظيم وتقدير، والأبناء القلوب بهم أعلق؛ لأنهم بضعة منه، فالقلب يتفرق بين هؤلاء عادة، الإخوة ينتظر منهم العون والنصر، يتقوى بهم، والأب والأم لا يرد لهم طلباً، والأولاد يموت دونهم، ويود لو أنهم لم يطئوا على الأرض؛ لئلا يلحقهم بذلك مشقة، ويوم القيامة: نفسي نفسي، لن يجد أحداً يقف معه، لن يجد معيناً ولا مؤازراً، أقرب الناس إليه، فكيف بالأصدقاء الأصحاب؟!، أما الأشرار فكما قال الله: {الْأَخِلَّاء يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ} [سورة الزخرف:٦٧]، فلن يجد من زملاء ومعارف وجيران وقرابات، لن يجد من أحد رفداً ولا عوناً إطلاقاً، وإنما يعتقه أو يوبقه عمله، فاللائق بالإنسان إذا كان الأمر بهذه المثابة أن يبحث عما يحصل به الخلاص في ذلك اليوم، وعما يؤنسه وهو العمل الصالح والإيمان بالله -تبارك وتعالى-، فإذا كان حظه من ذلك وافراً كانت حاله آنذاك أفضل وأكمل وأطيب، وإذا كان الرسل -عليهم الصلاة والسلام- يأتيهم الناس وكل واحد منهم يقول: نفسي نفسي، فكيف بما دون الرسل -عليهم الصلاة والسلام-؟ في الدنيا الناس يتعاونون ويتوانسون، ويتسلى بعضهم بما يقع لبعض من الآلام والعلل والمصائب، وهناك كل أحد يجد أن مصيبته قد انفرد بها واختص بها، لا يشاركه في ذلك أحد، والمقصود أن مثل هذه تدفع الإنسان إلى مراجعة النفس، والتوبة إلى الله -عز وجل-، والجد والاجتهاد، والعمل الصالح، فذلك اليومُ الحق، وما عداه هذه الدنيا بما فيها، كل ما يجري فيها من اللذات والأتعاب إنما هي أحلام نائم سرعان ما تنقشع، وتبقى في النهاية ذكريات، لا يدوم شيء منها على حال، لا أوقات العافية، ولا أوقات المرض والشدة، كل ذلك يزول، ولكن الحياة التي لا تزول هي تلك الحياة التي علة العليل فيها لا تبرأ، ولا

يمكن الإمهال أو الرجوع إلى الدنيا أو إعطاء فرص جديدة، يبقى الإنسان أسيراً من عمله، والأمر قريب جداً، يمكن أن يموت الإنسان الآن وهو في مكانه، ثم يعاين الحقائق ويكون أسيراً لعمله، لا يستطيع أن يتزود، ولا ينفعه ندم، ولا تُرجي توبة، والله المستعان.

وقوله تعالى: {لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ} أي: هو في شُغُل شاغل عن غيره.

روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((تحشرون حفاة عراة مشاة غُرلاً)) قال: فقالت زوجته: يا رسول الله، ننظر أوْ يرى بعضنا عورة بعض؟ قال: ((لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ})) أو قال: ((ما أشغله عن النظر))[٢].

وعن ابن عباس عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((تُحشَرون حُفاة عُرَاة غُرْلا))، فقالت امرأة: أيبصر -أو: يرى- بعضنا عورة بعض؟ قال: ((يا فلانة، {لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ}))[٣]، ثم قال الترمذي: وهذا حديث حسن صحيح.

{لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ} هذا يبين لك لماذا يشتغل كل أحد بنفسه ويفر من أقرب الناس إليه، قال: {لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ}.

فقوله: {لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ}، كما يقول ابن قتيبة: يصرفه عن قرابته، له شأن، التنكير في "الشأن" هنا يدل على التهويل والتعظيم، شأن كبير {يُغْنِيهِ} يصرفه عن قرابته وعن الاشتغال بهم، أو الوقوف معهم أو مجرد الاستماع إليهم، والعرب تقول: أغنِ عني وجهَك، يعني: اصرفه عني، فيكون هذا من معناه، {لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ} يصرفه عن غيره، ويغنيه أيضاً، يعني فيه ما يكفيه، نزل به ما يكفيه مما لا يحتمل معه بلاءً من غيره، أن يدفع عن أحد أو يسمع من أحد أو يعطي أحداً شيئاً من حسناته، لكن إذا بدأ الحساب، والمقاصّة بين الخلق، وبدأت خزائن أعماله -لاسيما إذا كانت قليلة- تستخرج الحسنات، وينتثلها من وقعت عليهم مظالمه، فعند ذلك يرى الحسرات بعينه، يقتص الناس منه، يأخذون من الحسنات، فإذا فنيت حسناته ألقوا عليه من سيئاتهم، هذا الذي ما يقف مع أبيه ولا أمه ولا أولاده من أجل أن يعطيهم حسنة واحدة، يجد هذه الحسنات تؤخذ من بين يديه وهو يشاهد بسبب مظالم ظلمها هؤلاء في الدنيا، إما في عرضهم -تكلم فيهم-، أو كان ذلك في أموالهم، أو غير ذلك.

وقوله تعالى: {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ * ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ} [سورة عبس:٣٨-٣٩] أي: يكون الناس هنالك فريقين: {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ} أي: مستنيرة، {ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ} أي: مسرورة فرحة، من سرور قلوبهم قد ظهر البشر على وجوههم، وهؤلاء أهل الجنة.

{وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ} في ذلك اليوم {مُسْفِرَةٌ} مستنيرة، مضيئة، حسنة، {ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ}، مع شدة الموقف إلا أن الناس ينقسمون إلى قسمين بحسب أعمالهم.

---

٢ - تفسير ابن أبي حاتم (١٠/ ٣٤٠٠)، برقم (١٩١٢٩)، تحقيق: أسعد محمد الطيب، مكتبة نزار مصطفى الباز - المملكة العربية السعودية، ط٣، سنة النشر:١٤١٩ هـ.

٣ - رواه البخاري، كتاب الرقائق، باب كيف الحشر، برقم (٦٥٢٧)، والترمذي، كتاب تفسير القرآن عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ومن سورة عبس، برقم (٣٣٣٢).

{وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ * تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ} [سورة عبس:٤٠-٤١] أي: **يعلوها ويغشاها قترة، أي: سواد.**

وقال ابن عباس: {تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ} **أي: يغشاها سواد الوجوه.**

غبرة يعني: غبار وكُدورة، وما زال الناس يقولون على سبيل الذم للبعير: أغبر، {عَلَيْهَا غَبَرَةٌ}، يعني: هذه الوجوه كدِرة متغيرة، {تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ} يقول: **يعلوها ويغشاها قترة: سواد** الوجوه.

وابن جرير وقبله أبو عبيدة معمر بن المثنى يقولون: القَتَر هو الغبار، {عَلَيْهَا غَبَرَةٌ * تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ}، وزيد بن أسلم يقول: إن القترة ما ارتفع إلى السماء من الغبار، المرتفع يقال له: قترة، والغبرة ما انحط إلى الأرض؛ لأن الغبار يكون نازلاً، والقَتَر يكون عالياً، وهنا قال: {عَلَيْهَا غَبَرَةٌ * تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ} يعلوها سواد، تغير لون هذه الوجوه، بخلاف تلك الوجوه المضيئة، الحسنة المشرقة، يعني كما قال الله -عز وجل-: {يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ} [سورة آل عمران:١٠٦] هذا معناه، والله تعالى أعلم.

وقوله: {أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ} [سورة عبس:٤٢] **أي: الكفرة قلوبهم، الفجرة في أعمالهم، كما قال تعالى:** {وَلا يَلِدُوا إِلا فَاجِراً كَفَّاراً} [سورة نوح:٢٧].

آخر تفسير سورة "عبس" ولله الحمد والمنة.

يعني هذه وجوه الكفار، مع أن بعض السلف قالوا في قوله تعالى: {يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ} قالوا: وجوه أهل البدع تسوّد، وقال الله تعالى: {أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ} وهناك قال: {يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُواْ الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ} [سورة آل عمران:١٠٦]، فدل على أن المراد بذلك الكفار، لكن يكون للإنسان من التغير بحسب حاله من الإيمان والفجور والطاعة والمعصية، يكون له من الإشراق ووضاءة الوجه بحسب ما معه من الإيمان والعمل الصالح، فالناس يتفاوتون في هذا كله، كما ترى هذا التفاوت بينهم في الدنيا في أعمالهم، وكما قال ابن القيم -رحمه الله-: يكون سيرهم على الصراط في الآخرة كسيرهم على الصراط في الدنيا، وقالوا أيضاً: للعبد موقفان بين يدي الله -عز وجل-، الأول في الصلاة، والثاني للحساب، فمن حسن موقفه في الصلاة حسن موقفه عند الحساب، والله -عز وجل- يقول: {إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} [سورة التحريم:٧]، فهذه أعمالهم، ((إنما هي أعمالكم أحصيها ثم أوفيكم إياها))[٤].

---

٤ - رواه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، برقم (٢٥٧٧).